بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، محمد وآله الطيبين الطاهرين

واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣﴾ [لقمان: ١ – ٣]

إن قراءة الآية الثالثة من سورة لقمان يثير ثلاثة أسئلة:

السؤال الأول: ما هي علاقة الهداية بالقرآن الكريم؟

والسؤال الثاني: ما هو وجه تفريع الرحمة على الهداية؟

والسؤال الثالث: ما هو الوجه في اختلاف العناوين التي تنسب لصفة الهداية القرآنية؟

أما ما يرتبط بالسؤال الأول فنقول:

الناظر لجملة من آيات القرآن الكريم يلاحظ ربطاً واضحاً بين القرآن وبين صفة الهداية، ومن تلكم الآيات مثلاً:

١- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة (٢).

٢- قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ البقرة (١٨٥).

٣- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة (٩٧).

٤- قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ النّمل (٢).

٥- قَالَ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل (١٠٢).

٦- قَالَ جَلَّ فِي عُلاه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ لقمان (٣).

ومن هنا يثار سؤال حاصله: ما هو سر علاقة القرآن بالهداية؟

ومن أجل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من الوقوف على نقطتين:

النقطة الأولى: في حقيقة الهداية.

الهداية كما ذكر علماء اللغة والمفسرون هي عبارة عن الدلالة، وقد أضافها القرآن الكريم إلى عناوين متعددة:

١- تارة يضيفها إلى الحق كما في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ الأنعام (٨٧).

٢- وتارة يضيفها إلى ما يحصل به التمييز بين الحق والباطل كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ الإنسان (٣)، وقال أيضا: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ البلد (١٠).

٣- وتارة يضيفها إلى عاقبة العمل السيء كما في قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ الصافات (٢٣).

والجامع بين هذه الموارد المختلفة هو أن الهداية استعملت فيها بمعنى الدلالة.

النقطة الثانية: ما هي حاجة الإنسان إلى الهداية عن طريق الوحي والقرآن الكريم؟

وبيان هذه النقطة يعتمد على ذكر مقدمتين:

المقدمة الأولى: في حقيقة الشخصية الثانوية الاجتماعية للإنسان.

هناك ماهيتان للإنسان، ماهية تكوينية وماهية اجتماعية، والبحث في علاقة الإنسان بالهداية يرتبط بماهيته الاجتماعية لا بماهيته التكوينية، فالإنسان بحسب ماهيته التكوينية كما يعبر عنه أنه حيوان ناطق، ولكن الذي يرتبط بشخصيته ويرتبط بكيانه بحيث يكون مهتدياً هو الماهية الاجتماعية للإنسان، فما هي الماهية الاجتماعية للإنسان؟

لذلك ذكرت المدرسة المادية الديالكتيكية هذه المقالة:

كل مخلوق واجدٌ للطبيعة إلا الإنسان فإنه فاقد للطبيعة، وليس المقصود بذلك أن الانسان يولد بلا طبيعة، وإنما المقصود أن الإنسان يولد بطبيعة تكوينية، ولكن الطبيعة الاجتماعية التي من خلالها يصبح الإنسان مفكراً مُقننا منفعلاً فاعلاً هي طبيعة مكتسبة وليست طبيعة يولد عليها الإنسان، فكل موجود واجد للطبيعة إلا الإنسان فهو فاقد للطبيعة ويكتسبها من خلال بيئته التي يعيش فيها.

والشخصية الاجتماعية للإنسان تتألف من عدة عوامل:

العامل الأول: التسوية.

وهذا يستفاد من قوله عز وجل: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ الأعلى (٢)، والمقصود بالتسوية صياغة الموجود فإن الله تبارك وتعالى صاغ كل موجود بطاقةٍ مُعيّنة توصله إلى الهدف والغاية التي من أجلها خُلق ذلك الموجود، مثلاً النبات صيغ بطاقةِ النمو وهذه الطاقة توصله إلى أن يكون شجرةً مثمرة، والحيوان صيغ بطاقةِ الشعور وهذه الطاقة توصله إلى تحقيق مآربه، وأما الإنسان صيغة بطاقةٍ أخرى هي العقل والإرادة، فبهذين العنصرين تحققت التسوية بالنسبة للإنسان ، فتسوية الإنسان يعني أنه أُعطي طاقةً متشكلةً من العقل والإرادة بحيث تكون هذه الطاقة هي الطريق للوصول إلى الهدف الذي من أجله وُجد الإنسان، وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ الزمر (١٨)، تلخيص وإشارة للعنصرين -أعني العقل والإرادة-، حيث أن التعبير بـ(يتّبعون أحسنه) تختصر العنصرين، فإن إتباعهم للأحسن يعني أدركوا الأحسن بعقولهم، واتبعوا ما أدركوه بإرادتهم، لذلك تميزوا على المخلوقات بأنهم عبادٌ يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

العامل الثاني: السمات الأرضية.

إن الإنسان ذو ماهية أرضية، وهذا يعني أن الإنسان خُلق وفي جبلّته وطبعه إعمار الأرض، فهو لا ينفك عن الإعمار والبناء لأنه ابن الأرض، لذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ هود (٦١)، وليس معنى ذلك أنه طلب من الإنسان أن يُعمّر الأرض وإنما معنى ذلك أنه خلقه بجبلّة وطبعٍ يقوده إلى إعمار الأرض.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ الإسراء (٧٠)، بمعنى أن علاقتهم بالأرض هي التي جعلتهم يجوبون البر والبحر بحثا عن الرزق وجعلتهم يضمنون ويوفرون لأنفسهم الطيبات التي يرتزقون بها.

وقال تبارك وتعالى وهو يشير إلى العلاقة الارضية بين الإنسان وبين الأرض: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ الكهف (٧).

العامل الثالث: السنن الاجتماعية.

لم يمر مجتمع على الإنسان إلا ويكون فيه خاضعاً لسنن قاهرة تحكم سائر المجتمعات في سائر الأزمنة، ومن أمثلة تلك السنن:

سُنّة الفتنة:

قال تبارك وتعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت (٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ العنكبوت (٣)، والمستفاد من هاتين الآيتين وغيرها أن الفتنة من السنن الاجتماعية التي لا يخلو مجتمع منها، وقد تكون الفتنة الاجتماعية فتنة فكرية وقد تكون غريزية شهوية، وقد تكون دينية وقد تكون غير ذلك.

سنة التفاوت في الرزق:

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ الزخرف (٣٢).

سنة الاختلاف:

قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ هود (١١٨).

سنة الأجل:

قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ الأعراف (٣٤)، وقال في آية أخرى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ المؤمنون (٤٣).

هذه بعض السنن الاجتماعية التي كان الانسان ولا يزال خاضعاً لها، ولا يمكنه أن يفرّ منها، بل لا بد عليه أن يهتدي إلى إيجاد طريقةٍ ليتعامل معها.

العامل الرابع: الثقافة.

لا يتعامل الإنسان مع ما حوله إلا عن طريق ثقافة يعتقدها، ولذلك يقول علماء الحكمة الإنسان وجود ذهني، بمعنى أنه لا يستطيع أن يتعامل مع الخارج بشكل مباشر، وإنما يتعامل مع الخارج عن طريق الصور التي يختزنها في ذهنه فكل حياته وكل كيانه وجود ذهني، ولذلك يتعامل مع كل ما حوله عن طريق الثقافة التي يكتسبها من بيئته ومن مجتمعه، فالثقافة عاملٌ أساس في تكوين الماهية الاجتماعية لدى الإنسان وراء

ماهيته التكوينية.

ويتحدث القرآن عن هذا العامل الأخير على لسان الإنسان فيقول: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ المؤمنون (٣٧)، فمن تكون ثقافته حول الحياة الدنيا على عدم وجود شيءٍ وراءها فسيؤثر ذلك لا محالة على شخصيته الاجتماعية، ومن يعيش ثقافة التكاثر في الأموال والأولاد بحيث تكون همه الأول والأخير فإن ذلك يؤثر أيضا على سيره في هذه الحياة وعلى تعاطيه معها إلى أن يموت، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢)﴾ التكاثر (١ – ٢).

والحاصل: أن مسيرة الإنسان محاطة بهذه العوامل الأربعة ولا يمكنه أن ينفك عنها، ولذا نقول إن شخصيته الاجتماعية تتشكل من هذه العوامل الأربعة، ولذلك لابدّ من طريقٍ للهداية ينسجم ويتناسب مع هذه الشخصية الاجتماعية، ومن هنا تنبثق حاجة الإنسان إلى النظام والقانون؛ لأنه لولا وجود قانون ونظام لكانت نتيجة هذه العوامل الأربعة الصدام والصراع؛ لأن كل عاملٍ من هذه العوامل الأربعة يجر الانسان إلى طريق مختلف، ولن يهتدي إلى تحقيق هدف من الأهداف التي يجب عليه أن يحققها.

ولكن هل القانون الذي من شأنه أن يحفظ الإنسان من هذا الصدام هو مما يفرزه العقل أم القانون لابد أن يكون عن طريق الوحي؟

نقول: لا يمكن للإنسان أن يعتمد على العقل وحده في الوصول إلى القانون الذي ينظم هذه العوامل الأربعة ويشكل منها أسرة متكاملة، بحيث يدعم كل عامل العامل الآخر ولا يكون مصادماً له؛ لأن العقل وليد هذه العوامل، فإن عقل الإنسان لا يمكن أن يفكر إلا إثر ثقافة اكتسبها، ولولا أن لديه رصيداً من المعتقدات والأفكار والخواطر لما استطاع أن يحلل مسألة اجتماعية أو مسألة فكرية أو مسألة علمية.

إذاً الإنسان لا يمكنه أن يعتمد على العقل في اختراع القانون؛ لأن العقل ابن هذه العوامل، فإذا كان العقل وليداً من هذه العوامل فهو عاجز عن السيطرة عليها، وكذلك هو غير قادر على تحقيق رؤيةٍ فوقيةٍ تشمل هذه العوامل في كل زمن وفي كل مجتمع.

من هنا كانت الحاجة إلى قانون السماء؛ لأن قانون الوحي هو القانون الذي يستوعب العوامل كلها ويسيطر عليها ويخطط لرؤية ومنهج فوقي يسير بالإنسان نحو تكامل الأسباب لا نحو صراع الأسباب لذلك قال تبارك وتعالى مخاطبا البشر:﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ الليل (٤)، وهو بذلك يريد أن يقول أنكم أيها

البشر تعيشون في طرق متزاحمة وفي اتجاهات متفاوتة، وما ذلك إلا لأن البشر يعيشون خاضعين لهذه العوامل الأربعة ولم يهتدوا لطريق يجعلهم ينسجمون معها، ولكنهم لو اهتدوا الطريق وساروا على طريق الوحي لأصبح طريقهم طريقاً واحداً، قال تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ النساء (١٧٥).

المقدمة الثانية: قاعدة اللطف.

قاعدة اللطف هي عبارة عن مجموع صفات ثلاث: العلم والقدرة والحكمة، ومجموع هذه الصفات الثلاث يسمى قاعدة اللطف، بمعنى أن الله تبارك وتعالى يعلم حاجة المجتمع البشري، ويعلم حاجة الشخصية الاجتماعية للإنسان، ولا شك أنه قادر على تلبية هذه الحاجة، وإذا كان كذلك فهل من الحكمة أن يلبّي هذه الحاجة لكي يُخرج الإنسان من زوبعة الصراع بين العوامل إلى شخصية اجتماعية تتكامل فيها العوامل أم لا؟

نقول نعم، فما دام عالماً بحاجة الإنسان وقادراً على تلبية هذه الحاجة فإن مقتضى حكمته أن يرسل نظاماً إلى الإنسان الذي يصنع منه شخصيةً متكاملةَ العوامل، ويخرج طاقته من القوة إلى الفعل، ولذلك قال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الحديد (٢٥)، ومعنى قيام الناس بالقسط أن تكون الشخصية الاجتماعية للإنسان شخصية قسط وعدالة، تعيش حالة توازنٍ بين قواها ولا تعيش حالة صراعٍ وصدام.

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الإسراء (٩).

السؤال الثاني: ما هو وجه تفريع الرحمة على الهداية في الآيات المتعددة التي سبق ذكرها؟

هناك نوعان من الرحمة الإلهية: رحمة عامة لكل الموجودات، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ طه (٥٠).

وهناك رحمة خاصة وهي الرحمة الإيمانية، قال تبارك وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف (١٥٦)، ومن الرحمة الخاصة الرحمة القرآنية، فإن الانصهار بالقرآن والعلاقة الوطيدة معه هي التي تحول الهداية إلى رحمة،

فالإنسان بين هدايتين هداية فطرية وهداية قرآنية إذا نالها الإنسان نال الرحمة القرآنية، وهي عبارة عن الحياة الروحية الخاصة ولا ينالها إلا من انصهر بالقرآن، وهذه الحياة لها ثلاثة معالم:

المعلم الأول: التعلق بالله تبارك وتعالى.

قال عز وجل: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الزمر (٢٣)، ويقول تبارك وتعالى وهو يشير إلى هذا المعلم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ المائدة (٨٣).

المعلم الثاني: الثبات.

كلما توغل الإنسان في القرآن الكريم عن طريق معارف أهل البيت –صلوات الله عليهم أجمعين– ازداد ثباتاً على الحق وازداد إصراراً على عقائده، قال تبارك وتعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخرة وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ إبراهيم (٢٧).

المعلم الثالث: الاطمئنان.

وهو عبارة عن الشعور بالرضا والقناعة.

ويتجلّى هذا المعلم –بشكل واضح– في مراجعنا العظام فإنهم يعيشون قانعون بما عندهم، راضون بما قسمه الله لهم، تظهر عليهم آثار السكينة والهدوء على الرغم من كثرة مسؤولياتهم، وما يعايشونه من مصاعب ومتاعب.

وهذا المعلم تحدث عنه القرآن في موارد متعددة، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ الرعد (٢٨).

إذاً الرحمة هي عبارة عن الحياة الخاصة ذات المعالم الثلاثة وهي متفرعة على الهداية القرآنية والارتباط بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الإسراء (٩).

السؤال الثالث: ما هو الوجه في اختلاف العناوين التي تنسب لصفة الهداية القرآنية؟

حيث أن المتأمل في الآيات التي ذكرناها في بداية البحث يلاحظ اختلافا بينها، فقد تنسب الهداية القرآنية

للمسلمين كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ النحل (١٠٢)، وتارة للمتقين كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة (٢)، وتارة للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة (٩٧).

وقد يقال إن ها هنا ثمة وجهين لهذا الاختلاف:

الوجه الأول: إن هذا الاختلاف ناشئ من اختلاف مراتب صفة الإيمان، فهناك من حصل على مرتبة التقوى وهي الخوف من الله والقرآن يهديه، وهناك من حصل على مرتبة أعلى وهي مرتبة الإيمان الثابت والقرآن أيضا يهديه، وقد ذُكر في تفسير البرهان عن الإمام العسكري -عليه السلام- قال: (وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ شِيعَةِ مُحَمَّدٍ وَعَلِيٍّ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنْ أَخْلاَفِهِمُ وَذَرَارِيِّهِمْ)[1].

وهناك مرتبة ثالثة وهي مرتبة العمل الصالح والمعبر عنها بالإحسان، ويشير القرآن الكريم إلى هذه التراتبية في صفة الإيمان، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ المائدة (٩٣).

فالمرتبة الأولى (وعملوا الصالحات)، ثم الثانية (اتقوا وآمنوا)، ثم الثالثة (وأحسنوا).

الوجه الثاني: إن جميع هذه العناوين تشير إلى حقيقة واحدة ولكن بأوصاف مختلفة، فإن المؤمنين يمتلكون أوصافاً متعددة كالتقوى والإحسان والإسلام، ولا نعني بالإسلام في المقام مجرد التشهد بالشهادتين بل المقصود به هو ما أشارت إليه الآية المباركة: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة (١١٢)، فإن معنى الإسلام هنا تفويض الأمر إلى الله تبارك وتعالى، قال تعالى:﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ البقرة (١٣١)، أي فوّض أموره كلها لله تعالى.

بقيت لنا نقطة نود بيانها، وهي أن بعض الآيات السابقة فيها كلمة (وبشرى) بالإضافة للهداية، وبعض الآيات خلت منها البشرى، فما معنى أن القرآن مُبشر؟

ويجاب: بأن القرآن حينما يصف نفسه بكونه مُبشراً فإن هذا التبشير له معنيان:

المعنى الأول: أنه مُبشرٌ في الدنيا بمعنى أنه يعطي قارئه والمتعلق به حالةً من الاطمئنان لله تبارك وتعالى،

---

[1] تفسير البرهان ج١ ص٢٨٩.

فيجعله انسانا مطمئنا قانعا هادئا وهذه البشارة يحصل عليها الإنسان وهو في الدنيا.

والمعنى الثاني: أنه مُبشرٌ في الآخرة بمعنى أنه من أعظم الشفعاء في الاخرة، كما يشهد بذلك هذه الرواية الشريفة: عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال: (قال رسول الله –صلى الله عليه وآله–: فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع وماحلٌ مُصدق، ومن جعله أمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل)[١].

وفي رواية أخرى عن سعد الخفاف عن الإمام أبي جعفر الباقر –عليه السلام–: (يا سعد تعلموا القرآن، فإن القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق) إلى أن قال:(فيقول الله تعالى: يا حجتي في الأرض وكلامي الصادق الناطق ارفع رأسك وسل تُعطَ واشفع تُشفع، فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا رب منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يُضيّع شيئاً ومنهم من ضيّعني واستخفّ بحقي وكذّب بي وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب، ولأعاقبنّ عليك اليوم أليم العقاب...)[٢] إلى آخر الرواية الشريفة.

نسأل الله تبارك وتعالى أن نكون مع القرآن أحياءً وأمواتاً، وأن نسير على خطى أئمتنا أهل البيت –صلوات الله عليهم أجمعين– في الاهتمام بالقرآن الكريم قراءةً وتدبراً.

والحمد لله رب العالمين.

---

[١] الكافي ج٢ ص ٥٩٩.

[٢] الكافي ج٢ ص٥٩٦.